الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة شهادة سيف العدل(9):

الايرانيون بدأوا بملاحقة اتباع «القاعدة» و«الزرقاوي»... واخذوا بترحيل «المجاهدين» الى امكنة عديدة

«القاعدة» أسسها بن لادن لاحصاء عدد المجاهدين العرب الافغان واعتبرتها امريكا تنظيما

فؤاد حسين*

■ الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة أسلوب البحث العلمي المعتمد على القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخرى الاستماع إلى شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتا طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف على المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، ما لم نستطع التثبت منها، وتارة أخرى الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم على أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلى هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلى أن وصلنا إلى مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولى كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتى عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا على المعلومات التي طرحت للمرة الأولى، وعلى الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك على تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقدا له وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء على القدوم الثاني للزرقاوي إلى أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلى ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلى باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلى العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك.

وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل، وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان على تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين.

وللوقوف على مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق على حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلى كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتى عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلى تحقيق هذه الاستراتيجية.

في ايران

بدأنا بالتوافد تباعاً إلى إيران، وكان الاخوة في جزيرة العرب والكويت والإمارات من الذين كانوا خارج أفغانستان، قد سبقونا إلى هناك، وكان بحوزتهم مبالغ جيدة ووفيرة من المال، شكلنا حلقة قيادة مركزية وحلقات فرعية، وبدأنا باستئجار الشقق لإسكان الاخوة وبعض عائلاتهم.

قام الاخوة في الحزب الاسلامي من جماعة قلب الدين حكمت يار بتقديم المساعدة الجيدة لنا في هذا المجال، فقاموا بتوفير الشقق وبعض المزارع التي يمتلكونها ووضعوها تحت تصرفنا.

بدأنا العمل واعدنا الاتصال بالقيادة، وبدأنا بمساندتها ودعمها من جديد، وكان هذا الأمر ضمن أهدافنا من عملية الخروج من أفغانستان، وبدأنا بتشكيل بعض المجموعات المقاتلة للعودة إلى أفغانستان لتنفيذ مهمات مدروسة هناك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بدأنا بدراسة حالة المجموعات والاخوة من اجل اختيار أماكن جديدة لهم.

الأخ أبو مصعب ورفاقه الأردنيون والفلسطينيون اختاروا الذهاب إلى العراق، بعد دراسة ومناقشة طويلة، فهم بسحنهم ولهجاتهم يستطيعون الانخراط والاندماج بالواقع العراقي بسهولة، وقد كانت توقعاتنا ودراستنا المعمقة للأمور تشير إلى أن الأمريكان لا بد من أن يخطئوا ويغزوا العراق عاجلاً أم أجلاً، وان هذا الغزو سيهدف إلى إسقاط النظام، فلا بد لنا من أن نلعب دوراً مهماً في المواجهة والمقاومة، وهذه فرصتنا التاريخية التي قد نستطيع من خلالها إقامة دولة الإسلام التي سيكون لها الدور الأكبر في رفع الظلم وإحقاق الحق في هذا العالم بإذن الله.

كنت على وفاق مع أخي أبو مصعب بهذا التحليل، ولم تكن للقاعدة أية علاقة تذكر مع صدام حسين ونظامه، على العكس مما يشيعه الأمريكان دائماً، فالأمريكان كانوا دائماً يحاولون ربط صدام حسين ونظامه بالقاعدة، حتى يخلقوا لأنفسهم مبررات ومسوغات شرعية، حسب قوانينهم التي فرضوها بالقوة على هذا العالم المستعبد والمستحمر للغرب وللإسرائيليين وللانغلوسكسون. إذا كان لابد لنا من وضع خطة لدخول الاخوة إلى العراق عن طريق الشمال، غير المسيطر عليه من قبل النظام، ومن ثم الانسياح جنوباً إلى مناطق اخوتنا السنة الذين كان لنا بينهم بعض الاخوة.

وكان الاخوة في جماعة أنصار الإسلام قد ابدوا الاستعداد لتقديم أي معونة لمساعدتنا في تحقيق هذا الهدف.

الأمريكان لمسوا أن الإيرانيين يغضون الطرف عن نشاطنا في إيران، فبدأوا بشن حملة إعلامية مركزة على إيران، وبدأو يتهمونها بأنها تساعد القاعدة والإرهاب العالمي.

كانت ردة فعل الإيرانيين أن بدأوا بملاحقة الشباب واعتقالهم، والبدء بعملية ترحيلهم إلى أوطانهم السابقة، أو إلى حيث يريدون، المهم أن يخرجوا من إيران فقط.

الخطوات التي اتخذها ضدنا الإيرانيون أربكتنا وأفشلت 75 % من خطتنا. تم اعتقال العدد الأكبر من الشباب. مجموعة أبو مصعب تم اعتقال حوالي 80 % من أفرادها، كان لابد من وضع خطة سريعة لخروج أبو مصعب والاخوة الذين بقوا طلقاء معه، الوجهة كانت العراق. الطريق، الحدود الشمالية بين العراق وإيران.

الهدف كان الوصول إلى مناطق السنة في وسط العراق، والبدء بالتحضير والبناء لمواجهة الغزو الأمريكي وهزيمته بإذن الله. الاختيار لم يكن عشوائياً وانما كان مدروساً.

شخصية أبو مصعب عندما ودعني قاصداً العراق كان قد أضيف إليها بعد جديد لم يكن سابقا، هذا البعد الجديد كان يتركز على ضرورة الاقتصاص من الأمريكان على ما ارتكبوه من جرائم شاهدها بأم عينه أثناء القصف على أفغانستان، اصبح الحقد والعداء الذي يكنه أبو مصعب للأمريكان كفيلاً بتشكيل معالم جديدة لشخصية أبو مصعب.

أنا لا أستطيع أن اكتب بالتفصيل عن هذه الشخصية الجديدة، فلم التق به ثانية بعد أن غادر إيران، لكني استطيع القول من خلال ما اسمعه عنه، انه اصبح قائداً محنكاً قادراً على إدارة الصراع مع قوى الكفر العالمي من الأمريكان والاسرائيليين ومن والاهم والانتصار عليهم بإذن الله تعالى.

وكل ما أتمناه على أبو مصعب ورفاقه الأخذ ببعض هذه النصائح التي نرى أنها مهمة في هذه المرحلة، وإذا ما أخذ بها ستكون لها نتائج عظيمة في حسم الصراع الدائر في العالم بين الحق والباطل بإذن الله.

ونصائحنا هي الآتي:

1 ـ لا بد لكل عمل يصنع أو مجهود يبذل من هدف، فإذا ما كان الهدف واضحاً منذ البداية، فان الطريق الموصلة إليه سوف تكون واضحة المعالم سهلة المسالك، فإذا ما وضحت المعالم نستطيع أن نحدد الوسائل والإمكانيات والوقت الذي يلزمنا لقطع هذا الطريق الموصل إلى الهدف.

وعليكم أن تعلموا أن الوصول إلى أي هدف بحاجة إلى أربعة عناصر يجب أن تتوفر لكل من يسير على طريق التغيير هادفاً الوصول إلى نتيجة إيجابية، وهذه العناصر على الترتيب والتوالي هي:

أ ـ الفكر: لا بد لأي مشروع ناجح من وجود فكرة أو أفكار تحدد وتبين منطلقاته ووسائله وأهدافه، وهذه المسألة لا مجال للاجتهاد فيها كثيراً فيجب عليكم الإعلان بوضوح وصراحة أن هدفكم هو استئناف الحياة الإسلامية من خلال إقامة دولة الإسلام التي ستقوم بحل جميع مشاكل الأمة لتعود قوية متعافية لتتمكن من لعب دورها الخير في حياة البشرية جمعاء امتثالاً لقول الله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله». وكذلك قوله «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

هذه الخيرية وهذه الوظيفة لا يمكن أن تتحقق في واقع الأمة إلا إذا امتلكت الأدوات اللازمة لذلك، وهذه الأدوات لا تتحقق إلا بوجود الدولة الإسلامية، ففي الوقت الراهن لا مجال لدفع المعتدي ولا مجال لرفع الظلم السائد في هذا العالم والمتمثل في نهب الثروات واحتلال البلاد وإذلال العباد وانتهاك حرمة الأعراض والأوطان إلا بوجود دولة قوية تكون نداً للمعتدي في كل شيء حتى تستطيع ردعه وإيقافه عند حده، والأمور والظروف أيها الاخوة مهيأة ومواتية لإعلان هذه الدولة. فشعوب امتنا المقهورة باتت واعية بكل ما يدور حولها. فالأنظمة والحكومات التي تسود في عالمنا العربي والإسلامي، كفرها اصبح واضحاً للعيان لا يخفى على صغير أو كبير وكفرها واضح المعالم من ثلاثة وجوه، الوجه الأول: عدم تحكيمها لشرع الله والوجهة الثاني موالاتها للإسرائيليين والمشركين أعداء الأمة التاريخيين. والوجه الثالث يتضح في عداء هذه الأنظمة وهؤلاء الحكام للإسلام والمسلمين. إذاً جماهير الأمة تتطلع شوقاً ليوم الخلاص من هذه الأنظمة وهؤلاء الحكام وفكرنا هنا يجب أن يكون واضح المعالم، وتكون مصادره محددة، فمن مصادره الأساسية القرآن الكريم والسنة النبوية، والعقيدة أساس مهم من أسس هذا الفكر، نأخذها من السلف الصالح ونتعامل معها بنفس طريقتهم ومناهجهم في التعاطي، العقيدة التي تساعد على فهم الواقع فهماً سليماً لا لبس ولا غموض فيه، ذلك الفهم ينتج فكراً راقياً قادرا على التجدد والتعاطي مع كل ما يواجه الأمة من محن وخطوب، فكراً واضحاً جلياً قوياً قادرا على دحض كل الأفكار المناوئة والتفوق عليها والإسلام والحمد الله قطع مرحلة زمنية طويلة من عمره زادت عن 1400 سنة تعايش من خلالها مع بيئات مختلفة وظروف متعددة انتج معها من الفكر ما يمكنه من الخروج سالماً من كل مأزق ومحنة وبناءً عليه يجب أن تكون لدينا دائرة من الحكماء والعلماء القادرين على التعاطي مع هذا الأمر.

ب ـ الإنسان هو العنصر الثاني الذي يجب أن يتوفر لإنجاح أي مشروع، إنسان يؤمن بالفكرة إيمانا جازما ويسعى بها للوصول إلى الهدف الذي تحدده الفكرة، وانطلاقاً من هذا الأمر يجب أن يكون لدينا جهاز دعوي متخصص قادر على مخاطبة أبناء الأمة واستمالتهم إلى الحق والى جادة الصواب.

فمثلما نقوم بالعمل العسكري الجهادي يجب علينا أن نقوم بالعمل الدعوي، فلا يمكن أن نصل إلى التغيير المنشود إلا إذا أحدثنا تغيراً واضحاً في واقع الإنسان، لأن الإنسان هو الذي يطبع الزمان والمكان بطابعه الخاص، ولن تستطيع تحقيق النصر الكبير الحاسم إلا إذا تمكنا من تفعيل وتوظيف معظم طاقات الأمة الكامنة سواءً كانت طاقات بشرية أو مادية، وللعلم فان شباب الأمة في هذا الوقت مهيئون لتقبل دعوة الحق ومستعدون لنصرتها والدفاع عنها.

ج ـ اصبح لدينا الآن فكر سليم وإنسان حرّ يؤمن بهذا الفكر إيمانا جازما، هذا الإنسان لا يمكن أن يصل إلى هدفه إلا إذا توفرت له الإمكانيات المادية اللازمة التي تساعده على امتلاك الوسائل والأدوات الضرورية لتحقيق النصر والتمكين.

د ـ القيادة المخضرمة القوية المجربة هي العنصر الرابع الذي يجب أن يتوفر، فالقيادة هي التي تقوم بالتعاطي مع العناصر الثلاثة السالفة الذكر، ذلك التعاطي الواعي الهادف. فلو توفر فكر وإنسان دون وجود مادة أو قيادة لما أمكن الوصول إلى المبتغى، والعالم العربي والإسلامي يزخران بمن يمتلك من الخبرة والتجربة ما يكفي لتشكيل قيادة جديدة واعية مقتدرة لهذه الأمة.

2 ـ الراية الواضحة: لقد غابت راية الإسلام وغابت القيادة الحقيقية للأمة منذ أكثر من مئة عام تقريباً، غياب الراية فرق الأمة وشتت قواها وقدراتها وأضعفها أمام أعدائها. القيادات التي انبرت للمواجهة كانت قيادات مصطنعة عميلة صنعها الأعداء ووجهوها لخدمة مصالحهم وأهدافهم هؤلاء العملاء رفعوا رايات عالمية هدفها إضلال الأم وتشتيتها فنراهم يرفعون رايات القومية تارة وعلمانية أو أممية تارة أخرى، فإذا ما رفعنا راية الإسلام الواضحة راية لا اله إلا الله محمد رسول الله فإنها سوف تحرق جميع الرايات المخالفة وتكشف عوارها وزيفها، وهذا يساعد على إظهار القيادة الحقيقية للامة القيادة المخلصة القادرة على الاستجابة لهذه التحديات الجسام، استجابة واعية مدركة قادرة على مراعاة الظروف وعلى شحذ الهمم واستنفار الطاقات والإمكانيات وتوفيرها على أحسن ما يكون، هذا الأمر بحاجة إلى فرز الشباب والاخوة كل حسب إمكانياته وقدراته وقد تعلمنا أن التنظيم يعني توظيف القدرات واستغلال الإمكانيات.

3 ـ الخطة: أي عمل هادف لا بد أن يبنى على خطة واضحة المعالم منذ البداية، وضوح الخطة يحدد الوسائل اللازمة والإمكانيات المطلوبة والزمن المطلوب للإنجاز والتنفيذ، وأي عمل لا يبنى على خطة يعتبر عملاً عشوائياً غير منتج.

المتابع لعمل الحركات الإسلامية المعاصرة يستنتج أن عملها كان في غالبيته عملاً عشوائياً، الإخلاص وحده لا يكفي لتحصيل النجاح والوصول إلى النصر، لا بد من الأخذ بالسنن والقوانين الربانية، وضع الخطة المحكمة المناسبة من السنن الربانية. وانطلاقاً من هذا يجب على العاملين المجاهدين، أن تكون لهم خطط قصيرة المدى تسعى لتحقيق أهداف مرحلية وخطة طويلة المدى تسعى للوصول إلى الهدف الأكبر وهو إقامة الدولة.

4 ـ استغلال الفرص المتاحة واستشراف المستقبل من أجل الإعداد لاستغلال ما يستجد من ظروف وأحوال، للتوضيح نستطيع أن نضرب مثال العراق في الوقت الحالي. فحالة الانفلات الأمني التي نتجت عن انهيار نظام صدام حسين هي التي أتاحت الفرصة الجيدة للعمل الإسلامي الجهادي في أن يتغلغل وينتشر ويتجذر في ساحة مثل الساحة العراقية والتي ما كان له أن ينجح لو بقي النظام السابق. هذه الفرص قد تتكرر وتتاح في مناطق أخرى فتوقعاتنا تشير إلى أن سورية ولبنان قد تتعرضان لظروف سوف تتشابه مع الظروف العراقية الحالية. هذا الأمر في حال حصوله سوف يعطي العمل الإسلامي مساحة واسعة للعمل والمناورة سوف تكسبه كماً هائلاً من الطاقات البشرية والمادية وسوف تعطي التيار الإسلامي المجاهد فرصة التواجد على مقربة من حدود فلسطين المحتلة. العنصر البشري الشامي عنصر مهم، والاشتباك المباشر والدائم مع الإسرائيليين عنصر أهم سوف يعمل على نشر فكر التيار الجهادي ويعطيه مصداقية وفعالية تتيح له الوصول إلى هدفين من أهدافه الرئيسيين وهو أن يبرز كقيادة حقيقية للعالم الإسلامي والثاني المساهمة في عملية إضعاف إسرائيل والسير قدماً على طريق هدمها وإزالتها بإذن الله وتعالى.

هذا الأمر قد ينطبق على سورية ولبنان قريباً وستلحق بهما مصر عاجلاً أم آجلاً لأن النظرية الإسرائيلية تقوم على ضرورة استغلال القوة الأمريكية العملاقة في تحطيم كل الأعداء الحاليين أو المفترضين مستقبلا والذين قد يشكلون خطرا على أمن إسرائيل.

الأمريكان سوف يرتكبون أخطاء استراتيجية في انجرارهم خلف السياسة الإسرائيلية الخرقاء.

إذا الظروف الحالية المتوفرة إضافة إلى ما قد يستجد في المنطقة من تطورات وأحداث سوف تتيح الفرصة لإنشاء جيش إسلامي متكامل البناء والإعداد سيكون قادراً على إحراز انتصارات متتالية تعطيه مصداقية عالية تؤهله لأن يطرح ويبرز قيادة جديدة للأمة الإسلامية تكون قادرة على شحذ الهمم وصقل المهارات واستغلال الطاقات والإمكانيات المادية والبشرية للأمة سيراً على طريق الجهاد المبارك الذي سوف يتيح لهذه القيادة إعادة الخلافة الإسلامية إلى الواقع البشري من جديد، الخلافة التي تعني دولة الإسلام القادرة على إزالة الظلم الواقع على البشرية جمعاء وعند ذلك يتحقق وعد الله «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين». صدق الله العظيم.

حينها يتحقق النصر المنشود وترى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

«إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا».

هذه بعض النصائح العملية الملحة التنفيذ والتطبيق نقدمها إلى الأخ أبو مصعب والاخوة المجاهدين في العراق والتي في حال ما اخذوا بها فسيقلبون السحر على الساحر بإذن الله وسيساعدون في تنفيذ الخطة الكبيرة المرسومة لعودة الإسلام إلى واقع الحياة البشرية عودة موفقة، فالظروف متاحة والحمد الله والقادم من الأيام سوف يبرهن أن عباد الله قادمون لأن الظلم والقهر والحرمان والعدوان الناتج عن سياسات هذه القوى الشيطانية الخرقاء جعل حياة البشر صعبة لا تطاق وبات التغيير ضرورة ملحة يتطلع لها كل الأحرار في العالم.

هدفٌ واضح وراية سليمة ووسائل شرعية واضحة وحسن استغلال للظروف وقدرة على استخدام القدرات والإمكانيات والنصر والتمكين ونيل رضا رب العالمين.

هذه خلاصة نصائحنا والله ولي التوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

انتهت شهادة «مكاوي»

نبذة عن شخصية أسامة بن لادن

بعد أن سلطنا الضوء على شخصية أبو مصعب الزرقاوي، من مختلف جوانبها، وفي مختلف مراحلها الزمنية، آثرنا أن نسلط الضوء بشكل سريع وموجز على شخصية أسامة بن لادن، لنتوقف على الظروف التي أحاطت بالتطور الفكري لدى هذا الرجل والصعوبات التي اعترضته، وصولا إلى تأسيس الجبهة العالمية لمحاربة أمريكا واليهود، في شباط (فبراير) عام 1998 والتي انتقلت باهتمامات أسامة بن لادن خاصة والقاعدة عامة من مجموعة جهادية محدودة الأهداف والأفق الجغرافي إلى منظمة دولية، العالم كله ساحة لعملياتها، مما يوضح ما حدث لاحقا من أهمية التقاء بن لادن والزرقاوي مجددا في أهدافهما على أرض العراق عام 2004 بعد اختلافهما عام 1999، لنتمكن من خلال التحليل المستند إلى المعلومات والمعطيات، التقرب ما أمكن إلى محاولة استشراف ما يمكن أن يحدث في المستقبل على صعيد تطور تنظيم القاعدة الذي بدأ بتحالف أسامة بن لادن مع أردني هو (عبد الله عزام) ووصل الآن في نهايته إلى تحالف مع أردني أخر (أبو مصعب)، وما كان بينهما من تحالفات مع الظواهري والملا محمد عمر في ظل حكومة طالبان.

الجذور

ينحدر أسامة بن لادن من حضرموت في اليمن، واليمن هي موطن القبائل العربية الأولى ـ قبل التاريخ ـ ومن هناك بدأت الهجرات العربية أولا إلى جزيرة العرب التي تعرف حاليا بالمملكة العربية السعودية، التي انطلقت منها لاحقا الفتوحات الإسلامية بعد اعتناق أهل الجزيرة العربية الديانة الإسلامية.

وصل محمد عوض بن لادن والد أسامة بن لادن إلى جدة من حضرموت في حدود سنة 1930، وعمل في ميناء جدة حمالا، وبسبب طموحه الذي دعمه بالمثابرة تحول محمد بن لادن من مجرد حمال في مرفأ جدة البسيط إلى أكبر مقاول إنشاءات في المملكة. طموح والد أسامة بن لادن غذى لديه روح المجازفة، خاصة وأنه يمتلك قدرا كافيا من الجرأة، دفعته لتقديم نفسه إلى الملك سعود مؤسس المملكة السعودية، بوصفه الأقدر على المشاريع الصعبة وذات طابع التحدي،

ونجح في تنفيذ كل المشاريع التي كُلف بها، في تلك الأثناء تمكن من بناء علاقة جيدة مع أفراد العائلة الحاكمة بما فيهم فيصل الذي كان أميرا آنذاك. وكانت علاقته بالعائلة المالكة تؤهله حتى للتدخل في شؤونهم الأكثر خصوصية.

وحين لاحت الفرصة الذهبية، اقتنصها فورا، وذلك عندما حصل الخلاف المشهور بين فيصل وسعود إذ ساهم في اقناع الملك سعود بالتنحي لصالح فيصل. غادر الملك سعود الحكم حاملا معه كل ما كانت تمتلكه خزينة الدولة من أموال، مما أوقع الحكومة في أزمة سيولة مالية خانقة، أنقذهم منها والد أسامة بن لادن حيث أمن رواتب كل موظفي الدولة تقريبا لمدة تقترب من ستة أشهر. ومن باب رد الجميل، أصدر الملك فيصل مرسوما بتحويل كل عقود الإنشاءات على محمد بن لادن وكلفه عمليا بوزارة الإنشاءات.

في ظل هذه الظروف ولد أسامة بن لادن سنة 1957لأم سورية دمشقية، وكان ترتيبه السابع بين أخوته الذين يبلغ عددهم قرابة خمسين من الأخوان والأخوات، أصر والدهم أن يبقوا جميعا معا في سكن واحد وكان شديدا في الحرص على انضباطهم والتزامهم من الناحية الشرعية والأخلاقية.

وفي سنة 1969 ميلادية تكفل محمد بن لادن بإعادة بناء المسجد الأقصى بعد الحريق الذي تعرض له وكان قد ساهم في التوسعة السعودية الأولى للحرمين، المسجد النبوي في المدينة المنورة، والكعبة المشرفة في مكة، ولذلك يقول آل بن لادن أنهم تشرفوا ببناء المساجد الثلاثة. وهي أقدس ثلاثة مساجد عند المسلمين.

كان والد أسامة بن لادن رجلا متدينا متواضعا رغم حالة الثراء التي وصل إليها، وكان يضع في صدر منزله «القفة» التي كان يستخدمها عندما كان حمالا مفتخرا بعصاميته.

توفي والده سنة 1970 في حادث سقوط طائرة يقال أنه كان يتفقد فيها مشروع طريق الهدى المشهور. وكان عمر أسامة حينذاك 13 عاما. تولى شقيقه الأكبر سالم أعمال والده، وكان قوي الشخصية، رفض عدة مرات رغبة الملك فهد في أن يكون شريكا لهم في المؤسسة العملاقة التي بناها والدهم، ولم ينجح الملك فهد بأن يكون شريكا لعائلة بن لادن رغما عنهم إلا بعد وفاة سالم ـ في حادث طائرة أيضا!

نشأ الشيخ أسامة في بيئة متدينة منذ صغره، وتزوج في المرة الأولى عندما كان في السابعة عشرة من عمره من أخواله من الشام. كانت دراسته الابتدائية والثانوية في جدة. ودرس علم الإدارة العامة في جامعة جدة. وفي تلك الجامعة اطلع على أنشطة التيارات الإسلامية المشهورة وتعرف على كثير من الشخصيات الإسلامية.

وقد كانت ثمة شخصيتان لهما أثر متميز في حياته هما الأستاذ محمد قطب الأب الروحي لجماعة الإخوان المسلمين والشيخ عبد الله عزام الذي درسه مادة الثقافة الإسلامية.

أفكار الجهاد

بدأت علاقة الشيخ أسامة مع أفغانستان منذ الأسابيع الأولى للغزو الروسي لذلك البلد، فقد صدمه خبر احتلال بلد مسلم وتشريد أهله بهذه الطريقة من قبل الملحدين الشيوعيين. أحب الشيخ أسامة في وقت مبكر أن يطلع على الوضع بنفسه، فرتب مع الجماعة الإسلامية رحلة إلى باكستان حيث اصطحبته الجماعة من كراتشي إلى بيشاور، وهناك قابل مجموعة من قيادات المجاهدين أمثال سياف ورباني ممن لم تكن أسماؤهم غريبة عليه، إذ كان بعضهم ممن يحضر إلى مضافة والده في الحج والمواسم. حرص الشيخ أسامة أن يبقي أمر تلك الرحلة في البداية طي الكتمان، لأنه لم يكن يعلم توجه الحكومة السعودية، كما حرص أن يعطيها طابعا استكشافيا قبل أن يتخذ قرارا بخصوص ذلك الموضوع.

أمضى بن لادن في باكستان شهرا كاملا، كان كفيلا بإقناعه أن القضية تستحق أن تعطى جل اهتمامه.

بعد عودته إلى المملكة واطمئنانه إلى إمكانية البوح بخبر الرحلة بدأ يتحدث مع إخوانه وأقاربه وزملائه في الدراسة حول مشاهداته، وتمكن من تنفيذ حملة علاقات عامة لصالح المجاهدين. كانت نتيجتها كمية هائلة من التبرعات المالية والعينية للمجاهدين. حمل الشيخ أسامة تلك التبرعات وذهب في رحلة أخرى إلى باكستان مصطحبا معه عددا كبيرا من الباكستانيين والأفغان الذين يعملون في مؤسسة العائلة ـ شركة بن لادن. بقي الشيخ أسامة هناك لمدة شهر مرة أخرى. كرر هذه الرحلات حتى عام 1982، حاملا معه التبرعات ومصطحبا عددا من الناس من جنسيات مختلفة مكتفيا بمناطق المعسكرات والمخيمات دون الدخول إلى أفغانستان.

في عام 1982 قرر الشيخ أسامة اجتياز الحدود والدخول إلى أفغانستان والمشاركة في الجهاد. رأى أسامة الطبيعة الجبلية الصعبة لأفغانستان فقرر الاستفادة من تجربته في المقاولات، وجلب عددا هائلا من المعدات والجرارات والحفارات لمساعدة المجاهدين على تمهيد الجبال وشق الطرق وإنشاء المعسكرات. وتكررت زياراته إلى أفغانستان وإشرافه على نقل الأموال والسلاح والمعدات ومساهمته بعض الأحيان في بعض المعارك لكن بشكل غير منتظم. وكان بعض أهل الجزيرة قد تأثروا بزيارات الشيخ أسامة وبدأوا يتقاطرون على أفغانستان لكن بأعداد قليلة حيث لم تتحول القضية بعد إلى حملة شعبية وتنتظم في مؤسسات ومكاتب ومعسكرات.

في عام 1984 ظهر أول نموذج لعمل مؤسسي لجهاد العرب في أفغانستان وهو بيت الأنصار في بيشاور. أسس بيت الأنصار كمحطة نزل أولي أو استقبال مؤقت للقادمين للجهاد قبل توجههم للتدريب ومن ثم للمساهمة في الجهاد. ورغم تأسيس بيت الأنصار فلم يكن للشيخ أسامة جهازه الخاص أو بنية تحتية من معسكرات ومخازن وإمداد واتصال، ولم تكن له جبهة خاصة به، بل كان يرسل الشباب القادمين إلى أحد الأحزاب المقاتلة مثل احزاب حكمتيار وسياف أو رباني.

تزامن تأسيس بيت الأنصار مع تأسيس مكتب الخدمات في بيشاور من قبل الشيخ عبد الله عزام رحمه الله. وقد أدى تأسيس المكتب إلى نوع من التكامل مع بيت الأنصار حيث يؤدي المكتب المهمة الإعلامية وجمع التبرعات وحث المسلمين وخاصة العرب على الجهاد بالنفس والمال، ويؤدي البيت المهمة العملية في استقبال وتوجيه الراغبين في الجهاد أو الاطلاع على أوضاع الأفغان. وخلال تلك الفترة توثقت علاقة الشيخ عبد الله بالشيخ أسامة وقد رأى الاثنان أنه ليس من المصلحة دمج عملهما ومن الأفضل تعدد الواجهات مع التنسيق الجيد.

في سنة 1986 قرر بن لادن أن يتوسع في تنظيم

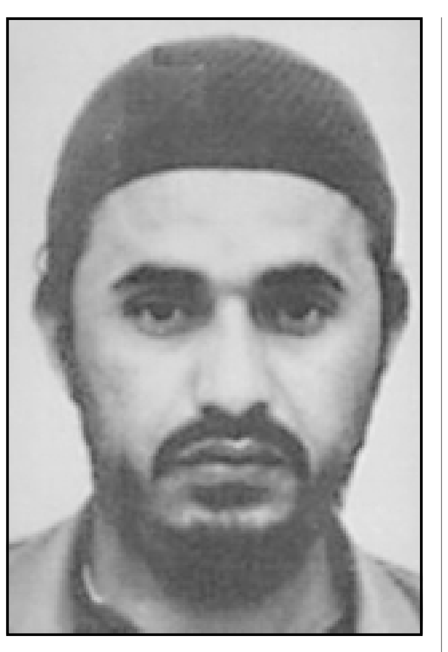

ابو مصعب الزرقاوي

العملية الجهادية وتكون له معسكراته وخطوط إمداده. وفعلا تمكن من تشييد ستة معسكرات وتمكن من خلال خبرته في الإنشاءات من تحريكها ونقلها أكثر من مرة تبعا لظروف الحرب. وبعد تجربة المعسكرات وبعد تمكن أسامة بن لادن من تبني المجاهدين العرب منذ وصولهم إلى تدريبهم إلى إشراكهم في المعارك، أصبحت فكرة المشاركة في الجهاد ذات جاذبية شديدة لأن الشباب أصبحوا يتناقلون أخباراً عن بساطة الفكرة وتقليل هيبة المشاركة في الجهاد لأن الذي يستقبل ويدرب ويقود من العرب.

وفي تلك الفترة تقاطر على بيت الأنصار والمعسكرات عدد هائل من المجاهدين العرب من مختلف المستويات التعليمية الثقافية والاجتماعية،كل هؤلاء شاركوا في مناوشات عديدة وقتال محدود في البداية ثم دخلوا في معارك طاحنة، كان أشهرها معركة جاجي في نهاية ذلك العام والتي هزمت على يد المجاهدين العرب فيها وحدات من أفضل وحدات الروس تدريبا وأفضلهم تسليحا وقتل فيها عدد من ذروة رجال الكوماندوز الروس. ومنذ عام 1986 إلى عام 1989 دخل المجاهدون العرب في خمس معارك كبرى مع الروس ومئات من المواجهات والمناوشات الصغيرة. وكانت تلك الفترة من أفضل الفترات عند المجاهدين بسبب توفر الفرصة للقيام بالجهاد دون مضايقات من الحكام العرب أو الحكومة الباكستانية. وخلال تلك الفترة لم يكن الشيخ أسامة يعود للسعودية إلا قليلا، ويقضي معظم أيام السنة في أفغانستان جهادا وتدريبا وأشرافا على المجاهدين.

تأسيس القاعدة

في نهاية الثمانينات وبالتحديد في سنة 1988 لاحظ الشيخ أسامة أن حركة المجاهدين العرب قدوما وذهابا والتحاقا بالجبهات بل وحتى كثرة الإصابات والاستشهاد قد ازدادت دون أن يكون لديه سجل عن هذه الحركة، رغم أهميتها وكونها من ألف باء الترتيب العسكري. وكان نقص هذه المعلومات سببا لإحراج الشيخ أسامة في أحايين كثيرة مع بعض العوائل التي تسأل عن أبنائها بالهاتف، أو حتى من خلال ارسال مندوب عنها للتعرف على مصير عضو العائلة الذي التحق بالشيخ أسامة. أدرك الشيخ أسامة أن نقص هذه المعلومات أمر مخجل، فضلا عن أنه خطأ إداري مبدئي. من هنا قرر الشيخ أسامة ترتيب سجلات للأخوة المجاهدين العرب.

توسعت فكرة السجلات لتشمل تفاصيل كاملة عن كل من وصل أفغانستان بترتيب من مجموعة الشيخ. ورتبت السجلات بحيث تتضمن تاريخ وصول الشخص والتحاقه ببيت الأنصار، ثم تفاصيل التحاقه بمعسكرات التدريب ومن ثم التحاقه بالجبهة. وأصبحت السجلات مثل الإدارة المستقلة، وكان لا بد من إطلاق اسم عليها لتعريفها داخليا، وهنا اتفق الشيخ أسامة مع معاونيه على تسميتها سجل القاعدة، على أساس أن القاعدة تتضمن كل التركيبة المؤلفة من بيت الأنصار ومعسكرات التدريب والجبهات.

استمر استعمال كلمة القاعدة من قبل المجموعة التي استمر ارتباطها بالشيخ أسامة وهنا خرج الأمريكان بانطباع أنها اسم للتنظيم.

في عام 1989 ميلادية وبالتحديد بعد انسحاب الاتحاد السوفييتي من أفغانستان، عاد الشيخ أسامة إلى السعودية معتبرا هذه العودة واحدة من السفرات التي يتوجه فيها لبلاده ويعود فور إنهاء بعض الأمور هناك. لكن هذه المرة لم تكن مثل السابقات، فقد علم الشيخ أسامة بعد فترة من وصوله أنه ممنوع من السفر. ظن الشيخ أسامة أن السبب هو الانسحاب الروسي وتفاهم القوى العظمى ودول المنطقة.

بعد قيام صدام باجتياح الكويت بادر أسامة بن لادن بكتابة رسالة إلى حكومة بلاده يعرض فيها وجهة نظره حول الطريقة المثلى لحماية البلد من الخطر العراقي بمجموعة اقتراحات حول السبيل الأمثل لتعبئة الأمة ضد هذا الخطر، ومن ثم السبيل الأمثل عمليا لمواجهته. وأضاف لهذه الاقتراحات عرضا بجلب كل المجاهدين العرب الذين يسمعون له للمساهمة في عملية الدفاع هذه.

ورغم توجسه من موقف النظام السعودي من القضايا الدينية والوطنية، فقد كان يتوقع نوعا من الاستجابة لطلبه المساهمة بعملية الدفاع عن البلد. لكن بدلا من أن تستعين الدولة بالعرض الذي قدمه الشيخ أسامة، بادرت بقرار كان السبب في أكبر تحول في حياة الشيخ أسامة، وهو اعلان استدعاء القوات الأمريكية. وكانت أكبر صدمة له في حياته، لأنها ـ بتقديره ـ المرة الأولى منذ البعثة النبوية (أي قبل قرابة خمسة عشر قرنا) التي يهيمن فيها الكفار على جزيرة العرب بقواتهم العسكرية. وصدم كذلك لأن القوات الأمريكية لم تدخل باحتلال أو رغم أنف الحكام بل دخلت بطلب منهم بعد أن هرعوا مستنجدين بالأمريكان. كان شعوره بعد ذلك شعور الإحباط والقلق على مستقبل الجزيرة بعد هذا التطور الخطير. بعدها أيقن الشيخ أسامة أن مخاطبة المسؤولين بالخطابات والمذكرات أسلوب عديم الجدوى ولا بد أن يفكر بأسلوب بديل.

* كاتب وصحافي من الاردن